

الظلم الاجتماعي

في القرآن الكريم

الشيخ عبداله أحمد الیوسف

الظلم الاجتماعي في القرآن الكريم

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ
كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

سورة الأنعام، الآية: ٢١

المقدمة

يعتبر الظلم من أخطر الآفات الاجتماعية والسياسية التي تهدد أي مجتمع بالزوال والانحيار والدمار، وانعدام الأمن والسلام الاجتماعي، وغياب الاستقرار السياسي، وتضاعف المشاكل وتراكمها.

وما ساد الظلم الاجتماعي في مجتمع من المجتمعات الإنسانية إلا أدى إلى تدمير ذلك المجتمع حضارياً، كما أشار القرآن المجيد إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(١).

ولخطورة الظلم وتأثيره السيئ على مسيرة المجتمعات البشرية، فقد حذّر القرآن الكريم من ممارسة الظلم، ونوعاً عدّ الظالمين بسوء العاقبة كما في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ

(١) سورة النمل: الآية ٥٢.

بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٢﴾،
 وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٣﴾، وقوله تعالى:
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَعْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾
 إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿٤﴾.

ويحذر الرسول الأعظم ﷺ من ممارسة الظلم لأنه
 ظلمات يوم القيامة، فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «اتقوا الظلم
 فإنه ظلمات يوم القيامة»^(٥) وقال الإمام علي عليه السلام: «الظلم في
 الدنيا بوار، وفي الآخرة دمار»^(٦).

وكل هذا التحذير من الظلم، وتشديد العقوبة على
 الظالمين، وتهديدهم بأن مصيرهم سيكون الخلود في النار؛ لأن
 الظلم من أقبح الأمور، وأعظم المعاصي، وأكبر المعاول لهدم
 المجتمع، وأكبر انتهاك لحقوق الناس المعنوية والمادية.

ولقبح الظلم وخطورته فقد تكررت كلمة (الظلم)
 ومشتقاتها - بحسب بحثي بالكمبيوتر - ١٥٤ مرة مما يدل على
 النهي الشديد من ممارسة الظلم، لماله من آثار وخيمة على

(١) سورة هود: الآية ٤٤.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٢١، وسورة يوسف: الآية ٢٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

(٤) سورة النساء: الآيتان ١٦٨ و ١٦٩.

(٥) الوسائل، الحر العاملي، ج ١٦، ص ٤٦، رقم ٢٠٩٤١.

(٦) ميزان الحكمة، محمد الريشهري، ج ٤، ص ١٧٧٠، رقم ١١٣٧٤.

الاجتماع البشري، ولما يتركه من تداعيات ومفاعيل خطيرة في البناء الاجتماعي للأمة.

ويتناول هذا الكتاب مجموعة من المحاور حول موضوع الظلم الاجتماعي من الرؤية القرآنية، ويشمل العناصر التالية:

- ١- معنى الظلم.
- ٢- أنواع الظلم.
- ٣- مرتكزات الظلم الاجتماعي.
- ٤- مواجهة الظلم الاجتماعي.
- ٥- عاقبة الظلم والظالمين.

وختاماً... أبتهل إلى الله عز وجل أن يجعل هذا الكتاب في ميزان أعماله، وأن ينفعني به في آخرتي ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سورة الشعراء: الآيتان ٨٨ و ٨٩]؛ إنه -تبارك وتعالى- محط الرجاء، وغاية الأمل، وينبوع الرحمة والفيض والعطاء.

والله المستعان

عبدالله أحمد اليوسف

١٤٣١/٦/٢٠ هـ

٢٠١٠/٦/٣ م

في معنى الظلم

١- المعنى اللغوي:

الظلم: وضع الشيء في غير موضعه. وأصل الظلم: الجور ومجازة الحد. والظلم: الميل عن القصد. ثم كثر استعماله حتى سُمي كل عسف ظلماً^(١).

وقال الراغب الأصفهاني: «الظُّمُّ عند أهل اللغة وكثير من العلماء وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه»^(٢) والظُّمُّ يقال في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر

(١) انظر لسان العرب، ابن منظور المصري، دار صادر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ج ١٢، ص ٣٧٣، وكتاب المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، استانبول - تركيا، ج ٢، ص ٥٧٧، وغيرها من كتب اللغة. مادة: (ظلم).

(٢) المفردات في غريب القرآن، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ص ٣١٨.

وفيما يقل من التجاوز ولهذا يستعمل في الذنب الكبير وفي الذنب الصغير^(١).

٢- المعنى الاصطلاحي:

لا يخرج المعنى الاصطلاحي لكلمة (الظلم) عن معناه اللغوي. إذ أن نقيض العدل هو الظلم، ولذلك يمكن تعريفه بأنه: (وضع الأمور في غير مواضعها).

٣- معنى الظلم الاجتماعي:

يمكننا أن نعرف الظلم الاجتماعي بأنه: أي انتهاك أو تعدُّ أو تجاوز أو حيف بحقوق الناس العامة، أو ممارسة التمييز ضدهم على أسس قبلية أو عرقية أو مذهبية أو لغوية أو غيرها من اعتبارات عنصرية؛ من غير فرق بين أن يكون القائم بهذه الممارسات الظالمة سلطة سياسية أو غيرها. مع العلم أن السلطة السياسية الحاكمة في أي مجتمع إنساني هي الأقدر على ممارسة الظلم أو تطبيق العدل.

«والجدير بالانتباه هو استعمال القرآن الكريم كلمة (العدل) في المواضع المتعلقة بوظيفة العباد، وعدم استعماله هذه الكلمة بخصوص الباري تعالى. وبالمقابل يلاحظ تعبير (نفي الظلم)

(١) المفردات في غريب القرآن، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة

عن الله بكثرة، وتعبير إقامة الله القسط ليس بقليل أيضاً^(١).

ذلك لأن الله سبحانه وتعالى عادل في كل شيء، والمطلوب من الناس أن يطبقوا العدل والعدالة في حياتهم، أما نفي الظلم عن الذات المقدسة فحتى لا يرتاب أحد من الناس أن الظلم الذي وقع عليه هو من الله، فالله عز وجل يريد العدل في كل شيء، والظلم لا يمكن أن يكون صادراً إلا من البشر.

أنواع الظلم

والظلم - كما يستفاد من القرآن الكريم - ثلاثة:

الأول: ظُلمٌ بين الإنسان وبين الله تعالى:

وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) وإياه قصد بقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٣) ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٤) في آي كثيرة وقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾^(٥) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾^(٦).

(١) نفحات القرآن، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ج ٤، ص ٣٦١.

(٢) سورة لقمان: الآية ١٣.

(٣) سورة هود: الآية ١٨.

(٤) سورة الإنسان: الآية ٣١.

(٥) سورة الزمر: الآية ٣٢.

(٦) سورة الأنعام: الآية ٢١.

والثاني: ظلمٌ بينه وبين الناس:

وإياه قصد بقوله: ﴿وَحَزَنًا وَسِتِّينَ سِتِّينَ مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^(١) وبقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾^(٢) وبقوله: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾^(٣).

والثالث: ظلمٌ بينه وبين نفسه:

وإياه قصد بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾^(٤) وقوله: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾^(٥) ﴿إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾^(٦) ﴿فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٧) أي من الظالمين أنفسهم: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾^(٨) وكل هذه الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس فإن الإنسان في أول ما يهجم بالظلم فقد ظلم نفسه، فإن الظالم أبداً مبتدئ في الظلم ولهذا قال تعالى في غير موضع^(٩): ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(١٠)

(١) سورة الشورى: الآية ٤٠.

(٢) سورة الشورى: الآية ٤٢.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٣٣.

(٤) سورة فاطر: الآية ٣٢.

(٥) سورة النمل: الآية ٤٤.

(٦) سورة النساء: الآية ٦٤.

(٧) سورة البقرة: الآية ٣٥.

(٨) سورة البقرة: الآية ٢٣١.

(٩) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، دار المعرفة، بيروت - لبنان،

الطبعة الثالثة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ص ٣١٩.

(١٠) سورة آل عمران: الآية ١١٧.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(١).

قال الرسول ﷺ: «الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره الله، وظلم لا يتركه»^(٢).

وقال الإمام علي عليه السلام: «ألا وإن الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله... وأما الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات، وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً»^(٣).

وسيكون محل بحثنا حول ظلم العباد بعضهم بعضاً، وهو ما نسميه بلغة العصر (الظلم الاجتماعي).

(١) سورة البقرة: الآية ٥٧.

(٢) ميزان الحكمة، محمد الريشهري، ج ٤، ص ١٧٧٣، رقم ١١٤١٥.

(٣) ميزان الحكمة، محمد الريشهري، ج ٤، ص ١٧٧٣، رقم ١١٤١٦.

مرتكزات الظلم الاجتماعي

للظلم الاجتماعي مرتكزات وقواعد ومصاديق متعددة ومتنوعة وكثيرة، لكن يمكن تلخيص أهمها في الأمور التالية:

١- انعدام التوازن الاجتماعي:

من أبرز مظاهر ومرتكزات الظلم الاجتماعي هو انعدام التوازن الاجتماعي بما يؤدي إلى نشوء الطبقة في المجتمع، تلك الطبقة التي ترمز إلى استعباد الأغنياء للفقراء، وسيطرة أصحاب النفوذ على من لا نفوذ لهم، والتباهي بالمال والجاه والقبيلة والعرق على التقوى والعلم والأخلاق.

والإسلام يرى أن هذا اللون من الطبقة لا ينسجم مع رؤيته لكرامة الإنسان، ولذلك رفع القرآن الكريم شعار التفاضل بالتقوى وألغى الاعتبارات الأخرى كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ

عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١﴾.

والطبقة الاجتماعية التي يرفضها الإسلام لا يمكن أن تنمو إلا في ظل انعدام التوازن الاجتماعي العام، أما عندما يكون المجتمع قائماً على التوازن الاجتماعي، فإن الطبقة تدبّل ويحل محلها التنافس المشروع، والتسابق في فعل الخيرات، وخدمة الناس.

والتوازن الاجتماعي هو: «التوازن بين أفراد المجتمع في مستوى المعيشة لا في مستوى الدخل. والتوازن في مستوى المعيشة معناه: أن يكون المال موجوداً لدى أفراد المجتمع متداولاً بينهم، إلى درجة تتيح لكل فرد العيش في المستوى العام، أي أن يحيا جميع الأفراد في مستوى واحد من المعيشة، مع الاحتفاظ بدرجات داخل المستوى الواحد تتفاوت بموجبها المعيشة، ولكنه تفاوت درجة، وليس تناقضاً كلياً في المستوى، كالتناقضات الصارخة بين مستويات المعيشة في المجتمع الرأسمالي.

فالإسلام يسعى من خلال تشريعاته إلى خلق مجتمع تسوده حالة من التقارب في الحياة المعيشية، وهذا التقارب يؤدي إلى إزالة الطبقة، لذلك يعتبر خطوة هامة لإزالة الفقر

والحرمان.

فسياسة الإسلام التوازنية تتحقق بموجب مشروعين هما:

أ- القضاء على التوسع التكاثري (الغنى الفاحش) وهو الجانب السلبي من المشروع، أي سلب القيمة الفائضة من يد الأغنياء.

ب- رفع مستوى الفقراء إلى درجة الإلحاق بالمستوى العام، وهذا هو الجانب الإيجابي من المشروع.

فعلى هذين العنصرين يدور فلك التوازن الاجتماعي، وتسلك الدولة الإسلامية منهجها الإصلاحية في المجتمع. والذي يجدر ذكره أن هذه السياسة التوازنية أي نفس فكرة تحقيق التوازن لا وسائله ليست مقتصرة على جانبها التشريعي، بل هي مستمدة من أصلاتها الكونية - أو التكوينية - التي منشؤها العدل الإلهي^(١).

وقد أشار القرآن الكريم إلى أهمية إيجاد التوازن بين فئات المجتمع، وإلغاء الطبقة القائمة على ترفيع فئة اجتماعية معينة

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام، السيد فاضل الموسوي الجابري، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، قم - إيران، الطبعة الأولى ١٣٨٢ هـ . ش، ص ٢٤٠ و ٢٤١.

والحط من كرامة وإنسانية فئة أو فئات أخرى، قال تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَنَّا لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾^(١).

والمفهوم الذي ورد في هذه الآية الشريفة يوضح أصلاً أساسياً في الاقتصاد الإسلامي وهو وجوب التأكيد على اتجاه الاقتصاد الإسلامي في عدم تمرکز الثروات بيد فئة محدودة وطبقة معينة تتداولها فيما بينها، مع كامل الاحترام للملكية الشخصية وذلك بإعداد برنامج واضح بهذا الصدد يحرك عملية تداول الثروة بين أكبر قطاع من الأمة.

ومن الطبيعي ألا نقصد من ذلك وضع قوانين وتشريعات من تلقاء أنفسنا ونأخذ الثروات من فئة ونعطيها لآخرين، بل المقصود تطبيق القوانين الإسلامية في مجال كسب المال والالتزام بالتشريعات المالية الأخرى كالخمس والزكاة والخراج وغيرها، وكذلك بالنسبة لأحكام بيت المال والأنفال بصورة صحيحة، فستكون هذه النتيجة هي المطلوبة، حيث في الوقت الذي يحترم فيه الجهد الشخصي فإن المصالح الاجتماعية لن يفرط بها أيضاً، ويمنع من حصول تضارب المصالح الاجتماعية والفردية وكذلك انقسام المجتمع إلى طائفتين: (الأقلية الثرية

(١) سورة الحشر: الآية ٧.

والأكثرية المستضعفة»^(١).

يقول السيد الصدر شارحاً مفهوم الآية الشريفة: «إن التوازن وانتشار المال بصورة تُشبع كل الحاجات المشروعة في المجتمع، وعدم تركزه في عدد محدود من أفراد هدف من أهداف التشريع الإسلامي. وهذا الهدف يعتبر مؤشراً ثابتاً يتصل بالعناصر المتحركة.

وعلى هذا الأساس يضع ولي الأمر كل الصيغ التشريعية الممكنة التي تحافظ على التوازن في توزيع المال، وتحول دون تركزه في أيدي أفراد محدودين وتحارب الدولة الإسلامية التركيز الرأسمالي في الإنتاج، والاحتكار بمختلف أشكاله.

ومثال آخر: إن نصوص الزكاة صرحت بأن الزكاة ليست لسدّ حاجة الفقير الضرورية فحسب، بل لإعطائه المال بالقدر الذي يلحقه بالناس في مستواه المعيشي العام، الذي يتمتع به غير الفقير في المجتمع، وهذا يعني أن توفير مستوى معيشي موحد أو متقارب لكل أفراد المجتمع، هدف إسلامي لا بد للحاكم الشرعي من السعي في سبيل تحقيقه»^(٢).

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة البعثة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م، ج ١٨، ص ١٧٣.

(٢) بحوث إسلامية، السيد محمد باقر الصدر، دار الزهراء، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م، ج ١، ص ٣٩٩ - ٤٠٠.

والنبي ﷺ من أجل خلق حالة من التوازن في المجتمع المدني الذي كان يضم المهاجرين الفقراء، والأنصار أصحاب المزارع والديار، خص بهذا الفيء المهاجرين دون الأنصار^(١).

ومتى ما انعدم التوازن الاجتماعي، وحلَّ محله التفاوت الفاحش غير المشروع بين الفئات الاجتماعية، فإن الظلم الاجتماعي سيبرز كأجلى صورة من صوره الظالمة، وهذا ما يؤدي إلى انعدام الاستقرار السياسي والاجتماعي، وارتفاع معدلات الجريمة، وتراكم المشاكل بمختلف أشكالها وصورها.

٢- أكل أموال الناس بالباطل:

يعد أكل أموال الناس بالباطل من المرتكزات والمصاديق الواضحة للظلم الاجتماعي، وأكل أموال الناس بالباطل بحسب تعبير القرآن الكريم في غير سورة من سوره الشريفه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢) يرمز إلى كل ثراء غير مشروع سواء كان ذلك من خلال الغش أو الاحتكار

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام، السيد فاضل الموسوي الجابري، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، قم - إيران، الطبعة الأولى ١٣٨٢ هـ. ش، ص ٢٤٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٨.

أو القمار أو الربا أو الغصب أو الخداع أو الرشوة... وما أشبه ذلك.

وأكل أموال الناس بالباطل يشكل مرتكزاً من مرتكزات الظلم الاجتماعي، ويتعاضم تأثيراته الاجتماعية عندما يكون صادراً من الدولة نفسها أو من الشركات العملاقة النافذة اقتصادياً أو من شخصيات قادرة على ممارسة سلب أموال الناس بغير وجه حق.

وفي سورة النساء يحذر القرآن الكريم المؤمنين مرة أخرى من الإضرار بالعدالة الاجتماعية من خلال أكل أموال الناس بالباطل وهو من الظلم الفاحش الذي ينهى عنه الإسلام بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾^(١) وهذا يعني أن كل تصرف في أموال الناس بغير حق فهو باطل، لأن نقيض (الحق) هو (الباطل)، والباطل له مصاديق كثيرة ومتعددة ومتنوعة، وقد تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، لكن يبقى ما يجمع بينها أنه تصرف باطل في أموال الناس.

فالتفريط بحقوق الناس المالية، ونهب ثروات الأمة، وسوء التوزيع للثروات، وابتكار الأساليب الخادعة لجمع أموال

(١) سورة النساء: الآية ٢٩.

الناس والسيطرة عليها، وإعطاء الامتيازات الاقتصادية لفئة دون أخرى، كلها صور ومصاديق لأكل أموال الناس بالباطل.

واستثنت الآية الكريمة الثراء المشروع الذي يكون من خلال التجارة ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ فهذا الاستثناء المنقطع تأكيد للقاعدة الكلية بحرمة الاستيلاء على أموال الناس بأي طريقة باطلة.

وفي سورة التوبة يحذر القرآن الكريم المؤمنين من سلب أموالهم من قبل بعض المنتسبين للمؤسسة الدينية من علماء دين منحرفين بطرق غير مشروعة، يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾^(١).

يقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي مفسراً هذه الآية الشريفة: «الطريف هنا أننا نواجه الأسلوب نفسه في القرآن على ما عهدناه في أمكنة أخرى من آياته، فالآية هنا لم تقل: إن الأحبار والرهبان جميعهم ليأكلون، بل قالت: ﴿إِنَّ كَثِيرًا﴾ فهي تستثني - في الحقيقة - الأقلية الصالحة منهم، وهذا النوع من الدقة ملحوظ في سائر آيات القرآن.

لكن كيف يأكلون أموال الناس دون مسوغ أو مجوز، أو

(١) سورة التوبة: الآية ٣٤.

كما عبر القرآن بالباطل فقد أشير في الآيات الأخرى إلى ذلك باقتضاب - أو إسهاب - كما ورد في التاريخ شيء منه أيضاً.

فالأول: إنهم كتموا حقائق التعاليم التي جاء بها موسى عليه السلام في توراته وعيسى عليه السلام في إنجيله، لئلا يميل الناس إلى الدين الجديد (الدين الإسلامي) فتقطع هداياهم وتغدو منافعهم في خطر، كما أشارت إلى ذلك الآيات ٤١، ٧٩ و ١٧٤ من سورة البقرة.

والثاني: إنهم بأخذهم (الرشوة) أو قل بارتشائهم، كانوا يقلبون الحق باطلاً والباطل حقاً، وكانوا يحكمون لصالح الأقوياء، كما أشارت إلى ذلك الآية ٤١ من سورة المائدة.

ومن أساليبهم غير المشروعة في أخذ المال هو ما يسمى (صكوك الغفران وبيع الجنة) فكانوا يتسلمون أموالاً باهظة من الناس، ويبيعون الجنة (بصكوك الغفران) والغفران ودخول الجنة منحصران بإرادة الله وأمره، وهذا الموضوع أي صكوك الغفران وما إلى ذلك يضحُّ به تاريخ المسيحية^(١).

وهذه الفئة غير المخلصة لدينها والتي تستأكل بدينها كي تكنز الثروات، وتقوم بجمعها بصورة باطلة، يشرهم القرآن

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة البعثة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ج ٦، ص ٣٢.

المجيد بالعذاب الأليم، كما في آخر الآية الشريفة ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١) لما اقترفته أيديهم من الاستيلاء على أموال الناس بغير حق، مستفيدين من انتسابهم للمؤسسة الدينية، وهذا من أعظم وأكبر أشكال الظلم الاجتماعي الذي ينخر في سلامة المجتمع وتقدمه.

والظلم الاقتصادي الناتج من الاستيلاء أو العدوان أو الغش أو الربا له عواقب في الدنيا والآخرة، إذ نجد في سورة النساء أن الله سبحانه وتعالى قد حَرَّمَ على اليهود العصاة بعض الطيبات في الدنيا كلحوم الأغنام والأبقار كعقاب لهم لصددهم عن سبيل الله، والتعاطي بالربا، وأكل أموال الناس بالباطل كما في قوله تعالى: ﴿فِيُظَلِّمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾^(٢) وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا^(٣). وفي الآخرة توعدهم الله سبحانه وتعالى بالعذاب الأليم لأعمالهم الظالمة، وتصرفاتهم المالية غير المشروعة، وهو ما يؤدي إلى انتشار الظلم وغياب العدالة الاجتماعية.

ويعد أكل أموال الناس بالباطل من أعظم المعوقات في انتشار العدالة، وغياب الازدهار والتقدم الاجتماعي، بل ونشوء

(١) سورة التوبة: الآية ٣٤.

(٢) سورة النساء: الآيتان ١٦٠ - ١٦١.

الطبقية التي تؤدي إلى انعدام التوازن الاجتماعي كما تحدثنا عنها في النقطة الأولى.

٣- انتهاك حقوق الناس العامة:

انتهاك الحقوق العامة للناس سواء كانت مادية أم معنوية تعد من المصاديق البارزة للظلم الاجتماعي الذي حرمه الإسلام، فالله سبحانه وتعالى عندما خلق الكائن الإنساني أكرمه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(١) ومن أبرز مصاديق التكريم للإنسان هو احترام حقوقه المادية والمعنوية، وحرمة سلب أي حق من حقوقه المشروعة؛ بل إن القرآن الكريم يرى أن من اعتدى على شخص فكأنما اعتدى على الناس جميعاً، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَجَلٍ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(٢).

أما عندما يتعدى انتهاك الحقوق لكل الناس، فمن الواضح أنه لا مكان للعدالة الاجتماعية في ذلك المجتمع، وأن الظلم هو

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٢.

السائد، وهو ما يجب رفضه ومقاومته، لأن الظلم في نفسه قبيح حتى ولو كان مع النفس، فكيف إذا كان ضد الآخرين!

والقرآن الكريم يحذر في عدة مواضع منه من الاعتداء على الآخرين، وممارسة الظلم بمختلف أشكاله ضدهم إذ يقول عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(١) بل أن القرآن الكريم يأمرنا بعدم الاعتداء وتجاوز الحقوق حتى في حالة الحرب مع الأعداء، يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُم وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٢).

وانتهاك الحقوق العامة للناس لها صور متنوعة، وكل ما يعد ظلماً في نظر الشرع والعقل فهو محرم، وكل ما فيه سلب أو اعتداء أو تجاوز أو انتهاك لحقوق الناس فهو يعد من الظلم الفاحش. بل إن الإسلام يحترم حتى الحقوق المعنوية فلا يجوز إساءة الظن بأي مؤمن أو اغتيابه أو بهتانه أو محاربتة نفسياً لإسقاطه اجتماعياً أو أي عمل فيه انتهاك معنوي لشخصيته مما يعد ظلماً وعدواناً وتعدياً على حقوق الآخرين.

والإسلام إنما سنَّ مجموعة كبيرة من التشريعات والقوانين لحماية أموال الناس وأعراضهم وحياتهم من

(١) سورة المائدة: الآية ٨٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٠.

الانتهاك أو العدوان عليها، كي يحافظ على ترسيخ مبدأ العدل والعدالة في المجتمع، ويحارب الظلم والاعتداء والتجاوز من أي مصدر كان.

ويجب التأكيد على أن الحق في الرؤية الإسلامية ينطلق من العدل في حين أن الحق في الرؤية المادية تركز على الحرية المطلقة؛ أما الحرية المسؤولة فهي مطلوبة لأن الحق نفسه لا يمكن الحصول عليه إلا مع وجود الحرية.

لذلك «نرى أن الإسلام لم يفكك بين الحرية والحق، لأن منح الحق هو تجسيد للحرية بشكل عملي، وهذا أقصى ما تطمح إليه الحرية كمبدأ أساسي.

إن الشرط الأساسي لأداء كل تكليف هو توفير الإرادة الحرة والقوة لأدائه، وهذا ما يسمى عموماً (الحق) في المصطلح القانوني. فحق الفرد في حرية العمل -مثلاً- وفي القدرة عليه يسمى (الحق الطبيعي). أما حرية القيام بالعمل الاجتماعي والقدرة على القيام به فيدخل ضمن (الحقوق المدنية)، فالحق إذن منوط بالحرية لأنه يدعو الناس للقيام بتكاليف معينة، والحقوق لا معنى لها بدون الحرية، والحرية تبقى مفهوماً فارغاً من غير أن يكون هناك حق القيام بعمل في حدود إطار معين.

ولا يعني ذلك أن الإسلام يقر الحرية الشخصية بالشكل

الذي عليه الفلسفة الرأسمالية، التي تمنح الإنسان الحق وفق الحرية بأن يتخذ أي سلوك أو أسلوب في الحياة، حتى لو أدى ذلك إلى إلحاق الأذى بنفسه، فإن ذلك محرم في الشريعة الإسلامية، لأنه خلاف العدل الذي ينطلق منه الحق، الذي هو فوق الهوى والرغبات التي لا تستند إلى أي أصل موضوعي، فالنفس الإنسانية محترمة لا يجوز إلحاق الأذى بها حتى من الإنسان نفسه.

ومن هنا يتضح الفرق بين الحق في الإسلام والحق في النظام الرأسمالي؛ فالحق في الإسلام ينطلق من العدل ويتأسس من الحرية. وقد ذكرنا سابقاً بأن الحرية لا يمكن أن تكون هي الأساس الموضوعي التي تتأسس عليها التشريعات في كافة مجالات الحياة.

إن الإسلام له فلسفته الخاصة للحرية والتي لا بد أن تنسجم مع مبادئه العامة، التي لا تريد الإنسان أن يعيش الظلم - لا مع غيره ولا مع نفسه - لأن الظلم بنفسه قبيح أي أن قبحه ذاتي بغض النظر عن متعلقه، لذلك تؤكد بعض الروايات أن الظلم حتى مع الحيوان لا يجوز، وأن صاحبه يدخل إلى جهنم بسبب ظلمه للحيوان، وكمثال لذلك القصة المعروفة لتلك المرأة التي تدخل النار بسبب ظلمها قطة حبستها ولم تطعمها شيئاً. وهذا أيضاً يفسر لنا بعض الخطابات القرآنية التي تصف

أولئك الذين ينحرفون عن الفطرة الإلهية، ويأخذون الطريق المعوج بأنهم ظالمون.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾^(١).

وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ فَلَ تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾^(٢).

وقال جلّت قدرته: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٣).

فالعدالة التي يريدتها الإسلام لا تختص بالجانب الاجتماعي فقط، بل تعم كل الجوانب، والحرية هي إحدى مصاديق العدالة الاجتماعية، وهي هدف عظيم يسعى الإسلام لتحقيقه، لأنه يرى أن تاريخ البشرية ليس سوى البحث عن الحرية والتحرر دون توقف، وهذا البحث يأخذ شكلاً متشعباً، فهناك التحرر من العبودية للبشر، وهناك التحرر من الحاجة، وهناك التحرر من الخوف، وهناك التحرر من القوى الطبيعية، والتحرر من تعسف الإنسان والظلم والخرافات... الخ، وهناك لون عالٍ من التحرر من الأنانية والتحرر من الأرضية وهو أسمى

(١) سورة الطلاق: الآية ١.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣٦.

(٣) سورة يونس: الآية ٤٤.

ألوان التحرر»^(١).

ولا يمكن للناس أن يمارسوا حريتهم بدون إعطائهم حقوقهم العامة، كما لا يمكن ممارسة حقوقهم بشكل كامل في ظل غياب الحرية المنضبطة.

وإذا ما رأينا في أي مجتمع إنساني انتهاك لحقوق الناس العامة فإن ذلك يعني أن هذا المجتمع يعاني من تفشي الظلم، وغياب العدالة، وهو ما يجب أن يدفع بالناس إلى فك هذه الأغلال والقيود، ونشر الحرية والعدالة في المجتمع كما فعل النبي ﷺ في مجتمعه كما قال تعالى مشيراً لذلك: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^(٢).

٤- ممارسة التمييز العنصري:

إن أي ممارسة تمييز الناس بعضهم عن البعض الآخر، وتكون قائمة على أساس اللون أو العرق أو النسب أو القبيلة أو المذهب أو الفكر تعد من المصاديق والمظاهر الواضحة للظلم الاجتماعي.

فالقرآن الكريم الذي يعتبر الناس متساوون في القيمة

(١) العدالة الاجتماعية، السيد فاضل الموسوي الجابري، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، قم - إيران، الطبعة الأولى، ١٣٨٢ هـ. ش، ص ٣٢١ - ٣٢٣.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٧.

الإنسانية كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْقَنُكُمْ﴾^(١) ويلغي أي اعتبارات للتمييز على أساس التفاخر بالأنساب والأعراق، ويجعل معيار التفاضل بينهم التقوى.

ولا يمكن أن تتحقق العدالة الاجتماعية إلا في ظل المساواة في كل الحقوق كالحقوق القضائية والقانونية، والحقوق الاقتصادية، والحقوق السياسية، والحقوق الاجتماعية، بل والحقوق المعنوية.

وعندما تمارس السلطة السياسية أو غيرها من سلطات مقتدرة ومؤثرة اجتماعياً سياسة التمييز بين الناس على أسس عنصرية فإن ذلك يترتب عليه الكثير من المآسي والمصائب الاجتماعية.

وحرمان بعض الناس من حقوقهم المختلفة، وممارسة التمييز ضدهم مخالف لمفهوم العدالة الاجتماعية في القرآن الكريم، فالناس كل الناس متساوون في الطبيعة الإنسانية كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾^(٢) وبالتالي فإن العدالة الاجتماعية تعني إتاحة الفرص لجميع أفراد المجتمع للتمتع بالحقوق في مختلف أبعادها.

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) سورة النساء: الآية ١.

كما أن العدالة الاجتماعية تعني أيضاً إعطاء الناس كل حقوقهم المشروعة في إطار العدل، وعدم التمييز على أسس غير مشروعة؛ لأن ذلك يتنافى مع مفهوم العدل الذي يأمرنا به القرآن الكريم في كل شيء، يقول تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰٓى اَلَّا تَعْدِلُوْا اَعْدِلُوْا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى وَاتَّقُوا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ﴾^(١).

(١) سورة المائدة: الآية ٨.

مواجهة الظلم الاجتماعي

حَدَّرَ القرآن الكريم في غير سورة من سوره الشريفه من ممارسة الظلم ضد الآخرين، وتوعد المرتكبين له بأشد العذاب، ولم يكتفِ القرآن الكريم بذلك؛ بل أكَّدَ على أهمية العمل في مواجهته، ورفضه وعدم القبول به، والسعي في ذات الوقت لنشر العدالة الاجتماعية كنظام اجتماعي يدعو إليه القرآن؛ فالعدل هو محور النظام الإسلامي، ومنطلق للحرية والحق والفضيلة.

والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف نواجه الظلم الاجتماعي؟ وما هي الخطوات التي يدعوننا إليها القرآن المجيد للقضاء عليه وإحلال العدالة الاجتماعية محله؟

يمكننا استشراف مجموعة من الخطوات والمرتكزات في مواجهة الظلم الاجتماعي... أبرزها ما يلي:

١- رفض الظلم:

من أهم الخطوات التي يدعونا إليها القرآن الكريم في مواجهة الظلم الاجتماعي هو: رفضه وعدم القبول به، إذ يجب على المجتمع - كما الأفراد - رفض الظلم بجميع صورته وأشكاله؛ وهذا الرفض يجب أن يكون شاملاً، بمعنى الرفض النفسي، والرفض العقلي، والرفض الجسمي، والرفض الأخلاقي، والرفض الثقافي، والرفض الاجتماعي لمبدأ الظلم. إذ إن الأخطر من الظلم هو القابلية للظلم، ذلك أن هذه القابلية تخلق المناخ المناسب للقبول بالظلم. وقد يبدأ هذا القبول بالظلم في القضايا الصغيرة حتى يتحول إلى قبول شامل لكل أشكال الظلم.

والله سبحانه وتعالى الذي لا يحب الظالمين كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^(١) لأن الظلم عمل قبيح في ذاته، والظالم يمارس أعمالاً شريرة فهو منبوذ عند الله سبحانه وتعالى، كما أنه منبوذ عند الناس. والله عز وجل الذي يريد العدل، ويرفض الظلم كما أشار لذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

(١) سورة آل عمران: الآية ٥٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٨.

ولأن الظلم محرم شرعاً وعقلاً، ولأنه عمل قبيح في نفسه، لذلك علينا أن نرفض الظلم من أي مصدر أتى، ومهما كان حجمه ونوعه، ولأي سبب كان، فالظلم لا يمكن تبريره، لأن الشر يجب أن يرفض.

والمؤسف حقاً أن بعض المجتمعات البشرية، وعلى طول التاريخ، تسكت عن الظلم، وتتعايش معه، وكأنها أصبحت لديها القابلية لـ(القبول بالظلم)، فيصبح الظلم وكأنه قدر لا مفرّ منه، في حين أن الله سبحانه وتعالى قد حرّم الظلم على نفسه، وجعله على غيره محرماً، والقبول بالظلم هو تشجيع للظالم على الاستمرار في ظلمه، وضياع الحقوق، وانتهاك الحرمات، وتجاوز الحدود... وكل ذلك من المحرمات بنص القرآن الكريم.

فأول خطوة في مواجهة الظلم هو رفضه، وعدم القبول به، والوقوف بوجه الظالم، والمطالبة بتحقيق العدل والعدالة الاجتماعية.

٢- عدم التعاون مع الظالم:

في مواجهة الظلم الاجتماعي يوجهنا القرآن الكريم إلى عدم الركون إلى الظلمة، لأن في التعاون معهم والميل إليهم والرضا بهم يؤدي إلى تقوية شأنهم، وقوتهم يؤدي إلى زيادة مساحة الظلم والجور في المجتمع، وتغييب العدل والعدالة

والحرية والشورى عن أجواء المجتمع وثقافته.

ويحذر القرآن الكريم من أن عقاب الركون إلى الظلمة هو النار في الآخرة، وذلك هو الخسران المبين، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (١).

وفي اللغة: الركون إلى الشيء هو السكون إليه بالمحبة له والإنصات إليه ونقيضه النفور عنه (٢).

وفي التفسير: إن الركون إلى الظالمين المنهي عنه هو الدخول معهم في ظلمهم وإظهار الرضا بفعالهم أو إظهار موالاتهم، فأما الدخول عليهم أو مخالطتهم ومعاشرتهم دفعاً لشهرهم فجائز عن القاضي، وقريب منه ما روي عنهم عليهم السلام أن الركون المودة والنصيحة والطاعة **﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾** أي فيصيبيكم عذاب النار **﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ﴾** أي مالكم سواه من أنصار يدفعون عنكم عذاب الله وفي هذا بيان أنهم متى خالفوا هذا النهي وسكنوا إلى الظالمين نالتهم النار ولم يكن لهم ناصر يدفع عنهم عقوبة لهم على ذلك **﴿ثُمَّ لَا**

(١) سورة هود: الآية ١١٣.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ج ٥، ص ٣٠٥.

نُصْرُونَ ﴿١﴾ أي لا تنصرون في الدنيا على أعدائكم لأن نصر الله نوع من الثواب فيكون للمطيعين^(١).

وفي الفقه: أوضح الشيخ الأنصاري بالتفصيل حكم معونة الظالمين، فقال: معونة الظالمين في ظلهم حرام، بالأدلة الأربعة، وهو من الكبائر، أما معونتهم في غير المحرمات فظاهر كثير من الأخبار حرمتها أيضا. لكن المشهور عدم الحرمة حيث قيدوا المعونة المحرمة بكونها في الظلم.

وبعد أن استعرض الروايات الواردة في الموضوع بالتفصيل قال: وقد تبين مما ذكرنا أن المحرم من العمل للظلمة قسما:
أحدهما: الإعانة لهم على الظلم.

والثاني: ما يعد معهم من أعوانهم والمنسولين إليهم، وأما ما عدا ذلك فلا دليل معتبر على تحريمه^(٢).

ومما تقدم يتضح لنا أن معاونة الظالم في ظلهم أمر محرم لما له من مفسد كبيرة؛ إذ يساعد ذلك على نشر الظلم وتقويته، والقضاء على العدالة، وطغيان الظلمة، وتضاعف جورهم

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ج ٥، ص ٣٠٦.

(٢) انظر كتاب المكاسب، الشيخ مرتضى الأنصاري، مؤسسة النعمان، بيروت - لبنان، طبع عام ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ج ١، ص ١٥٣ - ١٥٥.

وقهرهم للناس .

لذلك توعد الله عز وجل معاوني الظلمة في ظلمهم بالنار ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُمُ النَّارُ ﴾ وأكد على ذلك الرسول الأعظم ﷺ بقوله: «من أعان ظالماً على ظلمه جاء يوم القيامة وعلى جبهته مكتوب: آيس من رحمة الله»^(١) وقوله ﷺ: «من مشى مع ظالم فقد أجرم»^(٢) يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴾^(٣).

ولو أن الظلمة لم يجدوا من يعينهم ويساعدهم على ظلمهم لما استطاعوا أن يظلموا أحداً، ولكن الظلمة يجدون الكثير من الأعوان والأنصار ممن يساعدهم على ممارسة الظلم ونشره في كل شيء، ولذلك فهم يعدون من أعوان الظلمة، وستصيبهم النار كما تصيب الظلمة أنفسهم.

وإذا ما أردنا نشر العدل والعدالة الاجتماعية فلنترك الظلمة لوحدهم، وعندها لن يستطيعوا أن ينشروا الظلم، وسينهارون بسرعة البرق، لأن الظالم لا يمكنه لوحده أن يمارس الظلم، وإنما يمارسه عندما يجد من يعينه عليه، ولنتذكر مره أخرى قوله

(١) ميزان الحكمة، الريشهري، مؤسسة دار الحديث الثقافية، بيروت - لبنان،

الطبعة الثانية ١٤١٩هـ، ج ٤، ص ١٧٧٩، رقم ١١٤٧٠.

(٢) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ٧٢، ص ٣٧٧، رقم ٣١..

(٣) سورة السجدة: الآية ٢٢.

تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُمُ النَّارُ﴾^(١) ولنعمل بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾^(٢).

٣- الجهر بالمظلومية:

الجهر بالمظلومية والتشهير بالظالم من الأساليب التي أشار إليها القرآن الكريم في مواجهة الظلم، إذ يقول تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾^(٣).

وقد استفاد الفقهاء من هذه الآية الشريفة على حرمة الغيبة وجواز التشهير بالظالم من قبل المظلوم، قال الشيخ الأنصاري: «تظلم المظلوم وإظهار ما فعل به الظالم وإن كان مستتراً به كما إذا ضربه في الليل الماضي وشتمه أو أخذ ماله جاز ذكره بذلك عند من لا يعلم ذلك منه لظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾^(٤) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ»^(٥)، وقوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾^(٥).

وإن في منع المظلوم من هذا الذي هو نوع من التشفي حرجاً عظيماً ولأن في تشريع الجواز مظنة ردع للظالم وهي

(١) سورة هود: الآية ١١٣.

(٢) سورة القصص: الآية ١٧.

(٣) سورة النساء: الآية ١٤٨.

(٤) سورة الشورى: الآيتان ٤١ - ٤٢.

(٥) سورة النساء: الآية ١٤٨.

مصلحة خالية عن مفسدة فيثبت الجواز لأن الأحكام تابعة للمصالح، ويؤيده ما تقدم من عدم الاحترام للإمام الجائر^(١).

وحيث لا كرامة لظالم، سواء كان فرداً ويمارس ظلمه على أفراد محدودين، أم كان حاكماً ويمارس ظلمه على جميع الناس، فكما يجوز للمظلومين التشهير بالظالم في الأمور الفردية، كذلك ومن باب أولى أنه يجوز بل قد يجب التشهير بالحاكم الظالم من أجل رفع الظلم الاجتماعي عن الناس، وتحقيق العدالة الاجتماعية.

وعلى ذلك يصح التشهير بالظالم بأي وسيلة مشروعة وسلمية، بل يجب إذا انحصرت وسيلة رفع الظلم عن الناس بذلك، وعلى هذا يجوز شرعاً ممارسة كل ألوان العمل السلمي ضد الحاكم الظالم الذي لا يحكم بما أنزل الله تعالى ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢).

٤- مساعدة المظلومين:

يتحمل المجتمع مسؤولية كبيرة في مساعدة المظلومين برد المظالم إليهم، والأخذ بحقوقهم، والدفاع عنهم، فالقرآن

(١) انظر كتاب المكاسب، الشيخ مرتضى الأنصاري، مؤسسة النعمان، بيروت -

لبنان، طبع عام ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ج ١، ص ١٢٥.

(٢) سورة المائدة: الآية ٤٥.

الكريم يستنكر على الذين يعاونون الظالمين ولا يعملون من أجل الدفاع عن المظلومين والمستضعفين كما في قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾^(١).

فإذا كانت هناك فئة في مجتمع ما مظلومة ومستضعفة لأي سبب كان، فالواجب على الجميع العمل من أجل رفع ذلك الظلم عنهم، ومساعدتهم في الحصول على حقوقهم المشروعة، والعمل على رد المظالم إليهم.

وتضامن المجتمع ضد الظلم والظلمة، ومناصرة المظلومين والمستضعفين يساهم في القضاء على الظلم الاجتماعي، وإحلال العدالة الاجتماعية محله.

يقول الرسول الأعظم ﷺ: «من أخذ للمظلوم من الظالم كان معي في الجنة مصاحباً»^(٢) وقال الإمام علي عليه السلام: «أحسن العدل نصره المظلوم»^(٣)، وقال عليه السلام أيضاً لو لديه عليه السلام: «كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً»^(٤).

(١) سورة النساء: الآية ٧٥.

(٢) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ٧٢، ص ٣٥٩، رقم ٧٤.

(٣) ميزان الحكمة، محمد الريشهري، مؤسسة دار الحديث الثقافية، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية ١٤١٩ هـ، ج ٤، ص ١٧٨٠، رقم ١١٤٨٠.

(٤) ميزان الحكمة، محمد الريشهري، مؤسسة دار الحديث الثقافية، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية ١٤١٩ هـ، ج ٤، ص ١٧٨٠، رقم ١١٤٨٣.

فالوقوف مع المظلومين، ومساعدتهم مادياً ومعنوياً، ومطالبة الظالم برفع الظلّامة عن المظلومين، ورد الحقوق إليهم.. كل ذلك يجعل الظالم في موقف صعب، قد يضطره إلى التراجع عن ظلمه، وإنصاف المظلومين.

٥- العمل نحو تحقيق العدالة الاجتماعية:

عندما يسود المجتمع الظلم الاجتماعي، فإن المطلوب هو العمل نحو تحقيق العدالة الاجتماعية، من خلال استخدام كل الآليات والوسائل المشروعة لتغيير الواقع، وتغيير الظلم الاجتماعي إلى العدالة الاجتماعية بحاجة لأن يغير المجتمع من نفسه حتى يحدث التغيير، ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾^(١) ويتحمل المظلومون والمستضعفون أنفسهم مسؤولية كبيرة في تغيير الواقع، ويجب أن يكونوا أكثر استجابة لمنطق التغيير، وأكثر عملاً من أجل تحقيق العدل والحرية، وهم موعودون من الله سبحانه وتعالى بالنصر ضد الظالمين، يقول تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(٢).

والتغيير الاجتماعي لا يمكن أن يحدث من فراغ، بل يحتاج إلى عمل جاد في مواجهة الظلم، وإصرار على تحقيق

(١) سورة الرعد: الآية ١١.

(٢) سورة القصص: الآية ٥.

الهدف وهو تحقيق العدل الاجتماعي رغم كل المعوقات والعقبات، وهذا ما يأمرنا به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢)، فالله عز وجل الذي يأمرنا بالعدل والإحسان يحملنا مسؤولية تطبيق ذلك على أرض الواقع، فالحاكم والمجتمع والأفراد - كل بحسبه - يتحملون مسؤولية تطبيق العدل والعدالة الاجتماعية، وهو ما يعني أيضاً مقارعة الظلم والظالمين.

والتغيير الاجتماعي نحو تطبيق العدل يتطلب التدافع بحسب التعبير القرآني يقول تعالى: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٤)، والتدافع من صفات الاجتماع الإنساني، وبالتدافع نستطيع أن نقاوم الظلم والظالمين، ونحافظ على قيم العدل والعدالة

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٩.

(٢) سورة النحل: الآية ٩٠.

(٣) سورة الحج: الآية ٤٠.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥١.

والحرية والشورى والرفاه والرخاء والتقدم الاجتماعي.

وعندما يقوم المظلومون والمستضعفون بدورهم في مقارعة الظلم والعمل لتحقيق العدل فإنهم موعودون بالنصر والعزة والكرامة، وورثة مقاليد الأمور من الظالمين كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْزَكُمُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾^(٢)، لكن هذه الوراثة لن تتحقق إلا بالعمل الجاد، والتخطيط الدقيق، واستخدام كل الأساليب الممكنة والمشروعة لمقاومة الظلم والظالمين، وتحقيق العدل وتطبيق العدالة الاجتماعية.

٦- الدعاء على الظالم:

الدعاء على الظالم بأن ينتقم الله عز وجل منه هو من الوسائل المهمة والبسيطة التي يستطيع كل مظلوم أن يمارسه ضد ظالمه، وقد استفاد ابن عباس من قوله تعالى: ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾^(٣) أن معناه لا يحب الله الجهر بالدعاء على أحد إلا أن يظلم إنسان فيدعو على من ظلمه، فلا يكره ذلك^(٤).

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٧.

(٢) سورة الدخان: الآية ٢٨.

(٣) سورة النساء: الآية ١٤٨.

(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، ج ٣، ص ٢٠١.

وقد أمرنا الله تعالى بالدعاء، فقال عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١) وورد عن الرسول الأعظم ﷺ أن دعوة المظلوم مستجابة، إذ ورد عنه ﷺ أنه قال: «انقوا دعوة المظلوم، وإنما يسأل الله تعالى، وإن الله تعالى لم يمنع ذا حق حقه»^(٢)، وقوله ﷺ: «انقوا دعوة المظلوم، فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة»^(٣)، وعندما سُئل الإمام علي عليه السلام: «كم بين الأرض والسماء؟» قال عليه السلام: «بين السماء والأرض مد البصر، ودعوة المظلوم»^(٤).

فعلى الإنسان المظلوم أن لا يقبل بالظلم، وإذا كان لا يستطيع ممارسة أي عمل على ظالمه فليدعو الله عز وجل أن ينتقم منه، ويخلصه من الظالم، ويرجع الحق إليه.

كما يجوز لعن الظالم كما في قوله تعالى: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٦)

(١) سورة غافر: الآية ٦٠.

(٢) ميزان الحكمة، محمد الريشهري، مؤسسة دار الحديث الثقافية، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ، ج ٤، ص ١٧٨١، رقم ١١٤٩١.

(٣) ميزان الحكمة، محمد الريشهري، مؤسسة دار الحديث الثقافية، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ، ج ٤، ص ١٧٨١، رقم ١١٤٩٥.

(٤) ميزان الحكمة، محمد الريشهري، مؤسسة دار الحديث الثقافية، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ، ج ٤، ص ١٧٨١، رقم ١١٤٩٧.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٤٤.

(٦) سورة هود: الآية ١٨.

لأن الظالم مخالف لأوامر الله تعالى بتطبيق العدل والعدالة، ومتعمد لارتكاب العمل المحرم وهو الظلم وهو من أكبر المعاصي والذنوب.

ومما تقدم من وسائل وأساليب ومرتكزات وآليات في مقارعة الظلم والوقوف بوجه الظالمين يتضح لنا أن القرآن الكريم يرشدنا إلى استخدام كل الوسائل المشروعة، كل بحسب شأنه وقدرته في محاربة الظلم والتصدي للظالمين، والعمل بإخلاص نحو تطبيق العدل والعدالة الاجتماعية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ (١).

(١) سورة النساء: الآية ٥٨.

عاقبة الظلم والظالمين

للظلم عواقب وخيمة على الظالمين، ونشير إلى أبرزها في النقاط التالية:

١- الانتقام من الظالمين:

يحدثنا القرآن الكريم عن أن نهاية الظالمين والطغاة عادة ما تكون مأساوية في الدنيا، وأن الله تعالى ينتقم من الظالمين على ظلمهم، فقد أشار القرآن إلى إغراق فرعون وجماعته في البحر بعدما طغى وتكبر وظلم وتجاوز كل الحدود، يقول تعالى:

﴿ كَذَّابٍ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۗ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ ۗ وَكُلُّ كَانُوءٍ ظَلَمِينَ ۗ ﴾ (١)، وعندما رأى فرعون الطاغية والحاكم الظالم أنه سيعرق في البحر، وأن نهايته ماثلة أمام عينيه، وأن كل ما يملكه من مال، وما لديه من جنود

(١) سورة الأنفال: الآية ٥٤.

وقوة لا تستطيع حمايته من الغرق أعلن إيمانه، ولكن فات وقت ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، بَغِيًّا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتَ بِهِ، بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١)، ولكن فرعون الفاسد الذي كان يظلم الناس، ويذبح كل من يعارضه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَآئِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٢) لا يستحق إلا الغرق كي يرتاح العباد والبلاد من شروره وأفعاله وتصرفاته الظالمة ضد مجتمعه.

وقد تَوَعَّدَ القرآن المجيد الظالمين بالهلاك في غير سورة من سوره الشريفه كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَتُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾^(٣) وهذه الآية الشريفه تشير إلى أن الظالمين كانوا يواجهون دعوات الرسل إلى التوحيد والحق والعدل بالتهديد بالنفسى أو العوده إلى مسايرة الظالمين في عقيدتهم الفاسدة ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَتُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ فمصير الظالمين هو الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة.

(١) سورة يونس: الآية ٩٠.

(٢) سورة القصص: الآية ٤.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ١٣.

وقال الإمام علي عليه السلام: «ظلم الظالم يقود إلى الهلاك»^(١) وقال عليه السلام أيضاً: «من عامل رعيته بالظلم أزال الله ملكه، وعجل بواره وهلاكه»^(٢) فالظالمون وإن تأخر هلاكهم، لكن في النهاية لا بد وأن ينتقم الله منهم في الدنيا قبل الآخرة بهلاكهم ومصيرهم الأسود، والتاريخ خير شاهد على ذلك.

٢- تدمير الحضارات الظالمة:

يؤدي الظلم إلى تدمير الحضارات، فما ساد الظلم في مجتمع إنساني إلا وأدى إلى هلاك ودمار ذلك المجتمع، وخراب منجزاته الحضارية والمدنية.

ويحدثنا القرآن الكريم في غير سورة من سوره الشريفه عن تدمير الحضارات الظالمة، وهلاك المجتمعات التي تقوم على نظام الظلم والجور والفساد. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ

(١) موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ، محمد الريشيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ج ٤، ص ٣٢٤، رقم ١٨٧٤.

(٢) موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ، محمد الريشيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ج ٤، ص ٣٢٢، رقم ١٨٦٦.

(٣) سورة يونس: الآية ١٣.

خَاوِيكَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١﴾، وفي هذه الآية دلالة على أن الظلم يعقبه خراب الدور. وروي عن ابن عباس أنه قال: «أجد في كتاب الله أن الظلم يخرب البيوت، وتلا هذه الآية»^(٢).

وفي الحقيقة فإن تأثير الظلم في تخريب البيوت والمدن والمجتمعات لا يقاس بأي شيء، فالظلم يأتي بالصاعقة المهلكة، والظلم يزلزل ويدمر، والظلم له أثر كأثر الصيحة - في السماء - المهلكة المميتة، وقد أكد التأريخ مراراً هذه الحقيقة وأثبتها، وهي أن الدنيا قد تدوم مع الكفر إلا أنها لا تدوم مع الظلم أبداً^(٣).

وأشار المؤرخ ابن خلدون إلى أن الظلم مؤذن بخراب العمران، وأضاف موضحاً مفهوم الظلم: «ولا تحسبن إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور، بل الظلم أعم من ذلك. وكل من أخذ ملك أحد أو

(١) سورة النمل: الآية ٥٢.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ج ٧، ص ٣٥٥.

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة البعثة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ج ١٢، ص

غضبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه. فجباة الأموال بغير حقها ظلمة، والمعتدون عليها ظلمة، والمتتهبون لها ظلمة، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها لإذهابه الآمال من أهله.

واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم، وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري، وهي الحكمة العامة المراعية للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة، من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال. فلما كان الظلم كما رأيت مؤذناً بانقطاع النوع لما أدى إليه من تخريب العمران، كانت حكمة الحظر فيه موجودة، فكان تحريمه مهمّاً. وأدلته من القرآن والسنة كثير؛ أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر»^(١).

وقد ذكر لنا القرآن الكريم نماذج متعددة لتدمير الحضارات الظالمة كي نأخذ العبرة والعظة، ونطبق العدل، ونجتنب الظلم، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ

(١) تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ج ١، ص ٣٠٤.

يُظْلِمُونَ ﴿١﴾ ففي هذه الآية الشريفة يذكر القرآن الكريم أنواع العذاب التي استخدمت في تدمير المجتمعات الظالمة، فيقول تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ والحاصب معناه الطوفان الذي فيه حصى كثيرة تتحرك معه، والحصباء (الحصى الصغيرة).

والمقصود بـ (منهم) هنا هم (عاد) قوم هود، وحسب ما جاء في بعض السور كالذاريات والحاقة والقمر، أصابهم طوفان شديد مهلك خلال ثمانية أيام وسبع ليالٍ فدمرهم تدميراً.

يقول القرآن: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ حَاقِبَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ وقلنا: إن الصيحة السماوية التي هي نتيجة الصاعقة التي تقترن مع الزلزلة في زمان الوقوع، وهذا هو العذاب الذي عذب الله به ثمود (قوم هود) كما عذب آخرين. ويقول القرآن في الآية ٦٧ من سورة هود في شأن ثمود ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جِثْمِينَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾. وهذا هو عقاب قارون الثري المغرور وجنودهما، وقد ذكرت هذه القصة في

سور متعددة من القرآن الكريم.

وعلى كل حال، فمع الالتفات لهذا البيان فإن أنواع العذاب الأربعة للطوائف الأربع المذكورين في الآيتين الشريفتين:

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكَانِهِمْ وَرَبِّكَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ ۗ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾، وهي إشارة إلى ضلالهم وانحرافهم وذنوبهم دون أن يذكر عقابهم.

ولكن من البعيد أن نرى أن هذه الأنواع الأربعة من العذاب تشمل في هذه الآية أقواماً آخرين، كما يقول بعض المفسرين. (كالغرق لقوم نوح، وإمطار الحجارة والحصباء على قوم لوط) لأن عقابهم مذكور حيث ذكروا في السور الأخر ولا حاجة للتكرار هنا، فما لم يذكر في هذه السلسلة من الآيات هو عقاب الطوائف الأربع وقد بينه الله سبحانه في الآيتين الأخيرتين.

ويبين في ختام الآية التأكيد على هذه الواقعة وهي أن ما أصابهم هو بسبب أعمالهم، وهم زرعوا فحصدوا ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

أجل، إن عقاب هذه الدنيا والآخرة هو تجسيد أعمالهم،

حيث يغلقون هم جميع طرق الإصلاح في وجوههم. فالله أكثر عدلاً وأسمى من أن يظلم الإنسان أقل ظلم!^(١)

ويحدثنا القرآن الكريم عن مجموعة من القصص التي تتحدث عن تدمير الحضارات الظالمة والمجتمعات الفاسدة كي لا نمارس الظلم، ونطبق العدل، لأنه بالعدل نعيش في أمن واطمئنان ورفاه وسعادة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢) أما إذا ساد الظلم فالنتيجة هو خراب المدينة، والعيش في شقاء وتعاسة ومآسي كما في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾^(٣).

ومما تقدم يتضح لنا أن الظلم والجور والاعتداء على الآخرين يؤدي إلى هلاك وتدمير مجتمعات بكاملها كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة البعثة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ج ١٢، ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٩٦.

(٣) سورة الكهف: الآية ٥٩.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ١١.

ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذَتْهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿١﴾.

وما ساد الظلم في مجتمع إلا وحلَّ معه الفساد والجور والاضطراب وانعدام الأمن والسلام، وما حلَّ العدل في مجتمع إلا وحلَّ معه الصلاح والخير والأمن والسلام والاطمئنان ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٢).

وعلينا أن نختار العدل إذا ما أردنا التقدم الحضاري، والعيش بسعادة وتقدم وازدهار، أما إذا اخترنا الظلم الاجتماعي أو سكتنا عليه، وتعايشنا معه فلنتحمل عواقب ذلك.

٣- العذاب الأليم:

تتحدث الكثير من الآيات الشريفة بأن عذاب الظالمين في الآخرة عذاب أليم، والعقاب في الآخرة يتناسب مع الذنب والمعصية، ولأن الظلم من أكبر المعاصي، فعقابه من أشد أنواع العذاب.

«ويجب هنا توضيح أن العذاب قد يكون أليماً أحياناً، مثل: الجلد والتعذيب الجسدي، وقد يكون مهيناً كرش الشخص بالقاذورات، أو يكون العذاب عظيماً كأن يكون العقاب أمام أعين الناس، وقد يكون أثره عميقاً في نفس الإنسان يستمر معه

(١) سورة الحج: الآية ٤٨.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٨٢.

لمدة طويلة ويسمى هذا بالعذاب الشديد، وما إلى ذلك من أنواع العذاب.

وواضح أن وصف العذاب بواحد من الصفات يتناسب مع نوع الذنب، ولذلك فقد ورد في كثير من الآيات القرآنية أن عقاب الظالمين هو العذاب الأليم، لأنه يتناسب وألم الظلم الذي يمارسه الظالم على المظلوم، وهكذا بالنسبة للأنواع الأخرى من العذاب، وقد قصدنا بهذا الشرح تقريب مسألة العذاب إلى الأذهان، علماً بأن العذاب الأخرى شيء لا يمكن مقارنته بما هو موجود من عذاب في حياتنا الدنيوية هذه^(١).

فعلى الظالمين أن يتذكروا أن الله تعالى قد أعدَّ لهم عذاباً أليماً كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٤) وهذا العذاب الأليم دائم في جهنم كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾^(٥).

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة البعثة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ج ٣، ص ٤٥٦.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٣٧.

(٣) سورة الشورى: الآية ٢١.

(٤) سورة الإنسان: الآية ٣١.

(٥) سورة الشورى: الآية ٤٥.

وعندما يرى الظالمون العذاب الأليم يتمنون العودة إلى الدنيا والتخلي عن الظلم، ولكن أنى لهم ذلك، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَدْيٍ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾^(١)، وعندئذ يندم الظالم على ظلمه ويتمنى لو اتخذ طريق العدل والحق، يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْزُزُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾^(٢).

والظالم لأنه يعلم سوء عمله، ونهايته السوداء في الدنيا والآخرة، يرغب في عدم الموت، لكن الموت سيأتيه رغماً عنه، يقول تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾^(٤).

ولن ينفع الظالمون ما لديهم من أنصار في الدنيا، ومن قدرات وإمكانات مختلفة، إذ أنهم في الآخرة لن يجدوا أحداً من أنصارهم، وسيواجهون مصيرهم لوحدهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا مِنَ الظَّالِمِينَ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾^(٦)، وقوله

(١) سورة الشورى: الآية ٤٤.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٢٧.

(٣) سورة الجمعة: الآية ٧.

(٤) سورة البقرة: الآية ٩٥.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٧٠.

(٦) سورة آل عمران: الآية ١٩٢.

تعالى: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾^(١).

وليتذكر الظالم أنه لن يخلد في هذه الدنيا، وأنه سيعاقب في يوم من الأيام على ظلمه، و«الظلم ندامة»^(٢) كما ورد عن الرسول الأعظم ﷺ، و«يوم العدل على الظالم أشد من يوم الجور على المظلوم»^(٣)، و«يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم»^(٤) كما ورد عن الإمام علي عليه السلام.

(١) سورة المائدة: الآية ٧٢.

(٢) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج ٧٢، ص ٣٢٢، رقم ٥٢.

(٣) نهج البلاغة، الشريف الرضي، دار البلاغة، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م، ج ٤، ص ٧٤٠، رقم ٣٤٢.

(٤) نهج البلاغة، الشريف الرضي، دار البلاغة، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م، ج ٤، ص ٧١٥، رقم ٢٤٣.

ثبت المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ - ١٤٠٦م)، تاريخ ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- ٣- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- ٤- الأنصاري، مرتضى، كتاب المكاسب، مؤسسة النعمان، بيروت - لبنان، طبع عام ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ٥- الجابري، السيد فاضل الموسوي، العدالة الاجتماعية في الإسلام، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، قم - إيران، الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ.ش.
- ٦- الحر العاملي، محمد بن الحسن، (المتوفى سنة ١١٠٤هـ)، تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل

- الشريعة، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، بيروت، لبنان،
الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- ٧- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسن بن محمد (ت
٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، دار المعرفة،
بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- ٨- الرضي، الشريف، نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب،
شرح الشيخ: محمد عبده، دار البلاغة، بيروت - لبنان،
الطبعة الرابعة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- ٩- الري شهري، محمد، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب
عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ وَالتَّارِيخِ، دار إحياء التراث
العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ -
٢٠٠٠م.
- ١٠- الري شهري، محمد، ميزان الحكمة، مؤسسة دار الحديث
الثقافية، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ.
- ١١- الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله
المنزل، مؤسسة البعثة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- ١٢- الشيرازي، ناصر مكارم، نفحات القرآن، مؤسسة أبي
صالح للنشر والثقافة، قم - إيران، غير مذكور عدد الطبعة
ولا تاريخها.
- ١٣- الصدر، السيد محمد باقر، بحوث إسلامية، دار الزهراء،

- بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- ١٤ - الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ١٥ - المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار، مؤسسة أهل البيت، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- ١٦ - مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية، استانبول - تركيا، غير مذكور عدد الطبعة ولا تاريخها.

المحتويات

المقدمة.....	٧
في معنى الظلم	١١
١- المعنى اللغوي.....	١١
٢- المعنى الاصطلاحي.....	١٢
٣- معنى الظلم الاجتماعي.....	١٢
أنواع الظلم	١٣
الأول: ظُلمٌ بين الإنسان وبين الله تعالى.....	١٣
الثاني: ظُلمٌ بينه وبين الناس.....	١٤
الثالث: ظُلمٌ بينه وبين نفسه.....	١٤
مركزات الظلم الاجتماعي.....	١٧
١- انعدام التوازن الاجتماعي.....	١٧
٢- أكل أموال الناس بالباطل.....	٢٢
٣- انتهاك حقوق الناس العامة.....	٢٧
٤- ممارسة التمييز العنصري.....	٣٢

- ٣٥ مواجهة الظلم الاجتماعي
- ٣٦ ١- رفض الظلم
- ٣٧ ٢- عدم التعاون مع الظالم
- ٤١ ٣- الجهر بالمظلومية
- ٤٢ ٤- مساعدة المظلومين
- ٤٤ ٥- العمل نحو تحقيق العدالة الاجتماعية
- ٤٦ ٦- الدعاء على الظالم
- ٤٩ عاقبة الظلم والظالمين
- ٤٩ ١- الانتقام من الظالمين
- ٥١ ٢- تدمير الحضارات الظالمة
- ٥٧ ٣- العذاب الأليم
- ٦١ ثبت المصادر والمراجع
- ٦٥ المحتويات

للتواصل مع المؤلف

<p>المملكة العربية السعودية - المنطقة الشرقية ص.ب: ٨٤١ القطيف ٣١٩١١</p>	
<p>٠٠٩٦٦٥٠٣٨٤٤٩٩١</p>	
<p>البريد الإلكتروني: alyousif@alyousif.org alyousif50@gmail.com الموقع على الإنترنت: www.alyousif.org</p>	
<p>صفحة الفيس بوك: http://www.facebook.com/ alyousif.org</p>	
<p>قناة اليوتيوب: http://www.youtube.com/ alyousiforg</p>	